كلمة الدكتور عبود السراج
في حفل استقباله يتحدث فيها
عن سلفه الدكتور عزيز شكري

أيها السيدات والسادة

الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية

السادة الزملاء أعضاء المجمع ...

الزملاء والإخوة المحاضرون...

أتقدم أولاً بجزيل شكري وخالص تقديري لزملائي أعضاء مجمع اللغة العربية، الذين شرفوني بانتخابهم لي للانضمام إليهم، وأسأل الله تعالى أن أكون في المستقبل عند حسن ظنهم وعظيم ثقتهم.

كما أشكر صديقي وزميلي الأستاذ الدكتور موفق دعبول على تقديمه لي بما يكرمني ويشرفني، وهو خير من يعرفني في صداقة تجاوز عمرها ثلاثة عقود.

منذ طفولتي وأنا شغوف باللغة العربية، ربما لأنني نشأت في أسرة تقرأ القرآن الكريم، وتردد الأحاديث النبوية الشريفة، وتراجع أحداثاً من تاريخ العرب والإسلام. لذلك لم أكن أتجاوز العاشرة من عمري عندما كنت أحفظ أجزاءً من القرآن والحديث، وغير قليل من التاريخ الإسلامي.

وعلى الرغم من وجود مكتبة واسعة في منزل العائلة الكبير، فإنني كنت كثيراً ما أستأجر كتباً من مكتبة متخصصة بكتب الأدب العربي القديم، أو أستعيرها من مكتبة المدرسة أو مكتبة الأوقاف في دير الزور. وعندما أصبحت طالباً في كلية الحقوق بدمشق، بدأت بالتردد على المكتبة الظاهرية والمركز الثقافي العربي في أبي رمانة، كلما سنحت لي الفرصة بذلك.

بدأت صلتي بمجمع اللغة العربية عندما دعاني أستاذي الكبير وصديقي الدكتور عبد الوهاب حومد إلى حضور حفل استقباله في المجمع، وكان ذلك في السادس عشر من شهر تشرين الأول عام واحد وتسعين وتسعمئة وألف، في قاعة محمد كرد علي بالمدرسة العادلية بدمشق؛ ومنذ ذلك التاريخ وأنا أتابع أخبار المجمع ونشاطاته، وأقتني عدداً من مطبوعاته.

أود أن أكون صريحاً معكم أيها السادة، وأنا أتحدث عن حال اللغة العربية، لأقول: إننا أمام طريق شاقٍ وطويل، فيكفي أن نقرأ أو نسمع في وسائل الإعلام، أو في محاضرة تلقى في ندوة أو في مركز ثقافي، حتى نشعر بالإحباط. وأنا شخصيًّا أعترف بما كان يصيبني من همٍّ وغمٍّ، حين كنت أصحح الأوراق الامتحانية لطلاب كلية الحقوق على مدى نصف قرن من الزمن، وأكتشف أمية المتعلمين وعجزهم عن فهم لغتهم وحفظها، وحتى عن مجرد محاولة تَعَرُّفها وهي بين أيديهم. كما أكتشف وجود ارتباط شديد وبصورة دائمة بين تدني مستوى اللغة العربية في الورقة الامتحانية وضحالة الإجابة العلمية على الأسئلة المطروحة في الامتحان.

جميعنا يعلم أن منهجية تعليم اللغة العربية في مدارسنا قاصرة. فتعليم اللغة يجب أن يبدأ من داخل الأسرة، وأنّ مرحلة التعليم الأساسي هي المرحلة الحاسمة في حياة التلميذ، ولكن هذا، ويا للأسف، لم يتحقق،

ليس في سورية فحسب، وإنما في الدول العربية الأخرى التي زرتها جميعاً. إن المِعْوَل الذي يُهدِّم اللغة العربية في مجتمعاتنا هي العامية التي يحملها إلينا الجهل والأمية والشارع والتلفاز والسينما والمسلسلات العربية... وحتى في الجامعات نلاحظ أن عدداً غير قليل من أساتذتها يلقون محاضراتهم بالعامية، أو إذا حَسُن الحال بخليط من الفصحى والعامية.

وأمام هذا الواقع المؤلم، كثيراً ما تساءلتُ: هل اللغة العربية صعبة ومعقدة إلى الحدِّ الذي يجعلها عسيرة المنال حتى على المتعلمين والدارسين وحملة الشهادات الجامعية؟

ولكن سرعان ما أعود إلى الحقيقة والواقع: المشكلة فينا نحن وليس في اللغة العربية.

فإذا ما رجعنا إلى أجدادنا العرب، نجد السواد الأعظم منهم كانوا أميين، ومع ذلك فهم يتقنون لغتهم أباً عن جدّ، ثم يصبحون أدباء أو شعراء أو رواة أدب وشعر وتاريخ. وجميعنا يعلم أن نزول القرآن على العرب لم يكن صدفة؛ إنه تنزيل من رب العالمين.

إن من يعرف اللغة العربية حق المعرفة، ويكتشف أسرارها، ويتذوق جمالها، سوف ينتهي إلى القول: إن لغةً كهذه لا يمكن أن تصدر إلا عن شعوبٍ وأقوامٍ على درجة عالية من الحضارة الإنسانية. لذلك أنا أرفض المقولة التي يرددها البعض من أن العرب كانوا قبل الإسلام غارقين في عصر الجاهلية. إن هذه المقولة باطلة يرفضها العقل والمنطق، وتدحضها الحقائق العلمية والتاريخية. نحن أيها السادة من يعيش في عصر الجاهلية.

يسعدني أن أتحدث في هذا الخطاب عن سلفي في مجمع اللغة العربية، زميلي وصديقي، الأستاذ الدكتور محمد عزيز شكري، الذي جمعتني به مراحل من حياتنا تتشابه على مدى نصف قرن من الزمن.

نحن في سن متقاربة، سبقني د. عزيز بسنة واحدة في المدارس. حصل على الثانوية العامة في فرع الاجتماعيات عام خمس وخمسين وتسعمئة وألف، وأنا حصلت على الثانوية العامة في فرع الاجتماعيات بعد عام واحد.

تخرج د. عزيز من كلية الحقوق في الجامعة السورية عام تسعٍ وخمسين وتسعمئة وألف. كان مجلس الدولة حينها حديث النشأة في سورية ويعين قضاته من بين الخريجين الأوائل، فعُيِّن د. عزيز عضواً في مجلس الدولة. ولكنه لم يلبث فيه غير بضعة أشهر حتى اختارته وزارة التربية والتعليم والجامعة السورية لمنحة لدراسة القانون الدولي في أمريكا، قدمتها إلى سورية جمعية أصدقاء الشرق الأوسط. وقد سافر د. عزيز إلى أمريكا في الشهر الرابع من عام ستين وتسعمئة وألف.

أنا تخرجت من كلية الحقوق بعد عام واحد. عُينت عضواً في مجلس الدولة، وعُرضتْ عليّ منحة مقدمة من جمعية أصدقاء الشرق الأوسط لدراسة العلوم السياسية في أمريكا، ولكني آثرت التريث لأن هدفي الذي كنت أعمل له منذ طفولتي هو دراسة القانون. وهذا ما حصل فعلاً عندما انتقلت من مجلس الدولة إلى كلية الحقوق معيداً في قسم القانون الجزائي، ثم سافرت إلى فرنسا لإتمام تحصيلي.

خطا د. عزيز في أمريكا خطوات موفقة؛ حصل على الماجستير من جامعة فيرجينيا، ثم الدكتوراه من جامعة كولومبيا، وبينهما تزوج من السيدة ملك العاني التي أمضت جزءاً من طفولتها وتعليمها في أمريكا إلى أن تخرجت من كلية الدراسات الدولية في جامعة جورج تاون بواشنطن. وبعد سنة واحدة من زواجهما رُزِقا وَلَدَهما عمر.

أنهى د. عزيز دراسته في أمريكا بسرعة قياسية، فبعد أربع سنوات

وخمسة أشهر من تاريخ إيفاده عاد إلى دمشق وهو يحمل شهادة الدكتوراه في القانون الدولي. والتحق بكلية الحقوق في الشهر التاسع من عام أربعةٍ وستين وتسعمئة وألف، وكنت يومها معيداً في كلية الحقوق في انتظار الإيفاد. تعرفت بالدكتور عزيز في الساعة الأولى لوصوله إلى كلية الحقوق، ومن يومها انعقدت بيننا صداقة استمرت نصف قرن من الزمن.

عُيِّن **معيداً** في الكلية لأنه لم يمض على إيفاده خمس سنوات، ولكنه عُيّن مدرِّساً فيها عندما أتم السنوات الخمس.

حينما عدتُ من فرنسا كان د. عزيز معاراً لجامعة الكويت، وبعد خمس سنوات لحقتُ به معاراً أيضاً لجامعة الكويت، فسكنّا في منزلين متجاورين إلى أن غادر الكويت في عام سبعة وسبعين وتسعمئة وألف. بعد عودتي من الكويت عام ثمانين وتسعمئة وألف افتتحت الجامعة الأردنية في عمان قسماً للدراسات العليا في كلية الحقوق، فطلبتْ منا نحن الاثنين والدكتور كمال الغالي،أن نُدرِّس في درجة الماجستير يوماً واحداً في الأسبوع، فصرنا نسافر إلى عمان كل أسبوعٍ على مدى سنة كاملة.

تولى د. عزيز عدداً من المناصب غير ما ذكرتُ؛ فعمل عميداً لكلية الحقوق بجامعة دمشق عام ستةٍ وثمانين وتسعمئة وألف، ولمدة ثماني سنوات، وعميداً لكلية العلاقات الدولية والدبلوماسية في جامعة القلمون الخاصة في عام اثنين وألفين، ثم مديراً عامًّا لهيئة الموسوعة العربية من عام أربعة وألفين، إلى أن وافته المنية في العاشر من كانون الأول عام ألفين واثني عشرة.

كما عمل مستشاراً قانونيًّا لوزارة الخارجية السورية، ولجامعة الدول العربية، ولحكومة الكويت، وشارك في عدد كبير من المؤتمرات العربية والدولية.

للدكتور عزيز عدد كبير من الكتب والبحوث المنشورة، أكثرها في

القانون الدولي، كما كتب في القضية الفلسطينية عندما عمل محرِّراً مؤازراً في الموسوعة الفلسطينية.

ومع أن مؤلفاته تستحق قدراً كبيراً من الدراسة والتحليل، فإني سوف أتوقف عند كتابين يمثِّلان كل ما كتب في نصف قرن من الزمن.

الكتاب الأول هو: كتاب «التنظيم الدولي العالمي»، باكورة كتبه؛ ألَّفه في الكويت، في عام ثلاثةٍ وسبعين وتسعمئة وألف، شارحاً فيه التنظيم الدولي نظريًّا وواقعيًّا، مع قسم يتعلق بحقوق الإنسان والحريات العامة.

وهو يقول في مقدمة كتابه: فمؤلَّفي هذا هو كتاب مدرسي أُعد لدارسي المنظمات الدولية في الجامعات العربية، سواء في كليات الحقوق أو العلوم السياسية والعلاقات الدولية. وما اعتبره من مميزات لهذا المؤلَّف - كما يقول د. عزيز - يمكن تحديدها في نقطتين: أولاهما بساطته، وثانيهما محاولته معالجة المنظمات الدولية من جانبيها النظري والعملي بتوازن معقول.

وأقول أنا في تقييمي لهذا الكتاب: إنه قاموس يستحق أن يرجع إليه أي طالب أو دارس أو باحث يريد أن يتعرَّف البنيانَ التنظيمي للأمم المتحدة وفروعها ووكالاتها المتخصصة، ودورَ الأمم المتحدة في حفظ السلام والأمن الدوليين.

وآخر ما كتبه د. عزيز كتاب «الإرهاب الدولي - دراسة قانونية ناقدة»، وهو كتاب صدر عن دار العلم للملايين في بيروت عام اثنين وتسعين وتسعمئة وألف، وقدَّم له الدكتور سليم الحص رئيس مجلس الوزراء اللبناني.

وقد أُعد هذا الكتاب أصلاً باللغة الإنكليزية عندما أوفد الدكتور عزيز بمنحة من مؤسسة فولبرايت الأمريكية، لمدة سنة واحدة أمضاها في جامعة هارفارد لإعداد هذا الكتاب، الذي نُشر في الولايات المتحدة الأمريكية، عام واحدٍ وتسعين وتسعمئة وألف.

لقد قرأت هذا الكتاب باللغتين الإنكليزية والعربية، وأستل منه الأفكار والعبارات الآتية:

يقول الدكتور عزيز:

«فالإرهاب يظل شعاراً سياسيًّا يجري استخدامه بشكل عشوائي وكيفي وانتقائي لضرب حركات التحرر الوطني في مناطق معينة من الكرة الأرضية... فإرهاب الدولة العابر للحدود لافتة سياسية يتم خلفها ارتكاب جرائم أكثر فظاعة، إما بشكل مباشر أو غير مباشر، على يد عملاء الدول... لحساب هذه الدول أو بالنيابة عنها... تحت مختلِف الأقنعة، مثل «العمليات السرية»، و«الحرب ذات الشدة المنخفضة»، و«الدفاع عن الحرية والديمقراطية في الدول الأخرى»... إن عملاء هذه الدول يرتكبون جرائم خطيرة ضد حكومة وسكان دولة أخرى مثل: إبادة الجنس البشري، والفصل العنصري، واحتجاز الرهائن بالجملة، وباختصار كل جرائم الحرب الأخرى أو - كما تقول «قوانين جنيف» - كل الخروقات و«الانتهاكات الجسيمة»، بغرض خلق حالة من الرعب في أذهان القادة أو الناس في الدولة الضحية (وأحياناً في أذهان قادة وشعوب دول أخرى) لتحقيق نتيجة معينة بالقوة».

وهنا يضرب الدكتور عزيز مثلاً بالغارة الجوية الأمريكية على طرابلس وبنغازي في عام ستةٍ وثمانين وتسعمئة وألف، والتي لم تكن تضع نصب عينيها الرئيس معمَّر القذافي باعتباره الدماغ المخطط أو المحرّض المزعوم على الإرهاب في العالم الغربي.... بيد أن عنف الغارة ووحشيتها جعلت من الواضح أن السكان المدنيين في المدينتين وفي ليبيا كلِّها، هم أهداف الغارة، وذلك بهدف واضح بجلاء تام، وهو خلق حالة من الخوف والفزع والرعب في قلوب وأذهان المدنيين الأبرياء. وكانت الفكرة هي إفهامهم

بأنهم حتى لو نَجْوا من الموت أو الإصابة بجراحٍ، فإن المزيد من العقاب الثقيل قادم إليهم على يد «العم سام» ما لم يُسقطوا الرئيس القذافي».

ثم يتابع الدكتور عزيز قوله: «فإذا لم يكن هذا إرهاباً، فما هو الإرهاب؟ وإذا كان اغتيال المئات من الفلسطينيين، وجرح واعتقال عشرات الألوف منهم في السنة الأولى وحدها من الانتفاضة على يد القوات النظامية الإسرائيلية والمستوطنين اليهود في الضفة الغربية وغزة... ليس إرهاباً فما هو الإرهاب؟

إن الثأر والانتقام والعقاب كُلّها خارجة عن القانون بموجب ميثاق الأمم المتحدة... وإن فشل مجلس الأمن حتى الآن في الحفاظ على السلام والأمن الدوليين، كان سببه الرئيس خيانة بعض أعضائه الدائمين لمسؤوليتهم؛ إذ إنهم قادرون على منع المجلس - وقد منعوه فعلاً - من أداء واجباته طبقاً لقانون دولي مناسب حسب الأصول».

وأنا أشارك الدكتور سليم الحص حينما يؤيد في تقديمه للكتاب، جوهر ما انتهى إليه الدكتور عزيز في كتابه، وخاصة عندما يروي الدكتور الحص الواقعة الآتية:

«على أثر عملية خطفٍ تعرض لها أحد المواطنين الأمريكيين في بيروت، قال وزير الخارجية الأمريكي آنذاك (جورج شولتز) ما معناه: إن الوضع المتسيّب في العاصمة اللبنانية هو أشبه بوباء الطاعون، وإن أهل بيروت مسؤولون عن هذه الحال، وإنه يقتضي، ما دام الأمر كذلك، أن تُعزل هذه المدينة ويفرض الحجر عليها».

ثم يتابع الدكتور الحص تعليقه على هذه الواقعة فيقول: «... إذا كانت الدولة في لبنان عاجزة أو غير موجودة عمليًّا، والحكومة ممزقة وغير فاعلة،

فما ذنب الشعب اللبناني الطيب؟ وهل هو مسؤول وحده عما يحصل في لبنان؟ أليس للقوى الإقليمية، ومن ورائها القوى العالمية يدٌ فيما حصل في لبنان خلال سنوات الأزمة؟ ألم يكن هناك تدخل مباشر من قبل أجهزة تلك الدول السرية في إضرام النار؟ ألم يكن لإسرائيل اليد الطولى في تحريك عملائها لإذكاء الصراع والمشاركة فيه؟ لقد عانى اللبنانيون الأمرَّين من السياسة الأمريكية في تغطيتها للعدوان الإسرائيلي عليهم... فبدلاً من الدعوة إلى فرض العزل والحجر على البلد الصغير، أليس من الأولى الدعوة إلى تحري أسباب مرضه ومساعدته في التغلب على هذا المرض»[1].

رحمك الله يا أبا عمر... ماذا ستقول، لو كنت حيًّا، في هذه الأيام التي نمر بها، عما فعله بنا إرهاب الدول المتحضرة التي اعتادت المتاجرة بالدم والسلاح وحقوق الإنسان: لقد احتلتْ أرضنا، وانتَهكت سيادتنا، وخرقت جميع القوانين والمواثيق الدولية عندما اعتدت على وطننا باسم الحرية والديمقراطية والدفاع عن الشعب السوري. أي دفاع هذا بعد أن قتلوا مئات الألوف من أبنائنا، وشردوا الملايين من شبابنا، ودمروا وأغرقوا وقسموا ومزقوا وطناً ليس ككل الأوطان... كان مَضْرِب المثل في أمنه وسلامه، ووداعة شعبه، وعذوبة فراته، وجمال شامه، ورائحة ياسمينه...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

(١) كتاب الإرهاب الدولي... ص ٧ و٨.